الأهرام
١٩٩٨/٢/٤

أم كلثوم

بقلم :
د. نعمات أحمد فؤاد

لا تقولوا ذكرى.. انها الميلاد الجديد المتجدد.

فما نسيناها حتى نذكرها.. نعم رحلت ولكن في داخل نفوسنا.

واصبحنا نسمعك اكثر بحق السنين، بملء الحنين.. ولما عادت ليالي الخميس تهدهد الشوق.. آه من الشوق كما تغنين.. وما احلى ما تغنين.. وانت بيننا كنا نقول إن صوتك موهبة السماء.. ماذا بعد أن عاد الصوت الموهوب المتفرد والفريد الى مصدره.. الى علين.. هل تعلمين؟

إننا ننتظر شروقه مع الشمس يتهدى ويترسل ثم يجلجل «ياصباح الخير ياللى معانا».

إن شمس مصر لا تغيب وعلى المشرق والمغيب لا تسمع مصر والعرب غيرك.. أقصد الاستماع الحبيب والمهيب.. لانها تكلثمت.. وماذا ايضا لانك لم يبلغ شاوك أحد.. وهيهات.. كما اثبت بعد الرحيل، مر السنين.

لسنا وحدنا الذين نقولها.. لقد قالها الاديب المغربى (ابوبكر المرينى) فى كتابه : (أم كلثوم معجزة القرن العشرين) وقالتها بل كتبت عنها رسالة بكتوراه بالانجليزية، السيدة Virginia Louise Danielson بعنوان :

Shaping Tradition in Arabic Song The Career and Rep ertory of UMM KULTHUM

أما قبل مولدك فامامى كتاب (سفينة الملك ونفيسة الفلك) للشيخ شهاب الدين - ١٢٨١ هـ - وهو كتاب من ٤٩٦ صفحة يضم ما فى تراثنا من موشحات وادوار من مصر والعراق والاندلس لحشد من المؤلفين والملحنين.. ولكنك طراز خاص يفوق هذا كما وكيفا وتنوعا فى الكم والكيف أما القصائد فهى فوق المباراة.

عندما فازت ام كلثوم سنة ١٩٦٨ بجائزة الدولة التقديرية، جاء فى حيثيات الحكم :

[إن ام كلثوم قدمت الى الدولة فى جميع المناسبات القومية صورة من تفاعل الفن وتجاوبه مع الاحداث الكبرى وانها اشاعت التذوق الجمالي عن طريق اللحن والنغم بصوتها الفريد، الامر الذى فرض نفسه فنيا على جميع المستويات المحلية والعالمية].

اقول ام كلثوم مصرية من ذلك الطراز الذى صنع نفسه وصنع تاريخنا معه، كرفاعة الطهطاوي والعقاد وطه حسين والزيات واحمد امين، وامين الخولى والشيخ محمد عبده.

هؤلاء كلهم نبتوا فى الريف وضربت جذورهم فى اعماق تربته فاستمدت منها صفاتها الاصيلة من عطاء موصول، وخصب موفور، وقدرة على الاستمرار.

ان منبتهم الريفى امدهم بطاقة الفلاح المصرى على الجلد، وقدرته على الصبر، وصبره على الصعب، وتصوفه فى حب الارض.

من هذا المعدن النفيس، صاغ الله، ام كلثوم، فكانت ظاهرة استمرارها على امتداد نصف قرن ثم انقرانها، نيفا وثلاثين عاما بالقمة، ظاهرة.

كانت حديثة عهد بالقاهرة سنة ١٩٢٣ وحين عند كامل الخلعى شهيرات الغناء فى ذلك العام استهل بها كتاب الاغانى العصرية لكامل الخلعى ص ٢٩١] ثم انفردت.

اداؤها ظاهرة وقد اكسب ام كلثوم حفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة، صقلا فى النطق وتقويما فى اللسان، وسلاسة فى مخارج الحروف.

- إن قصيدة «النيل» كلها تعزز ميزة ام كلثوم فى النطق والأداء.

هذه القصيدة العصية بقافاتها على النطق القارىء فما بالنا بالغناء! ولكن ام كلثوم طوعتها ثم رقرقتها فى المطلع ثم تهدرت بها فى خفة الفرح بالمهرجان فتدفقت كالفيضان الذى يحتفل به صوتها المزغرد فى البيت :

فى مهرجان هزت الدنيا به
اعطافها واختال فيه المشرق

قال لى رياض السنباطى إن لحن قصيدة النيل، نعمة انعم الله بها على ولكن اين كان مكانها لو لم يقيض الله لها صوت ام كلثوم يؤديها؟

وبعد النطق، الإلقاء.

إلقاء ام كلثوم ظاهرة.. وقصيدة حافظ (وقف الخلق) مسلة صوتية فيها شموخ «الكلثوميات» الشعرية.

إن بيتا واحدا فعل فينا ما لم تفعله المقالات

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام
١٩٩٨/٢/٤

الطويلة، وهل ينسى مصرى ذلك البيت فى رائعة امير الشعراء احمد شوقى (سلوا قلبى):

وما نيل المطالب بالتمنى
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا.

على ان المسالة بالنسبة الى ام كلثوم ليست الصوت وحده مع طاقاته ومساحاته ومواهبه.. إنها عصر من الفن فقد كان ابو العلا يعلمها النغم واصوله، ورامى يعلمها الادب وفنونه.. والدكتور صبرى النجريدى وزكريا احمد يدربان صوتها تدريبا فنيا، والقصبجى يدربها على عزف العود حتى اجادته كما حفظت جزءا كبيرا من التواشيح وهى نخر ونخيرة للمغنى الشرقى الاصيل.. واجتمع لها رواد الفكر والشعر العقاد وطه حسين والمازنى وشوقى وحافظ والبشرى وعلموها بالقراءة والسماع والمجلس والصداقة ما لا يتاتى مثله لغيرها على هذا المستوى والقدر والمقدار.

واعطاها الله مع هؤلاء: الذكاء واللمح والطموح، وخفة الروح مما ضاعف تاثيرهم.

كل هذه العوامل التى يعز اجتماعها فى وقت واحد لانسان واحد، صنعت ام كلثوم فتقدمت لاكتمال الاداة، واستكمال الوسيلة، ونكاء الشخصية ومواتاة الظروف.

لم تكن ام كلثوم مطربة ميكروفون بل كانت شخصية منسوجة خيطا خيطا على مهل.. نضجها استوى وبات على مستوى.

لقد احدثت ام كلثوم اكثر من نقطة تحول فى الاغنية زجلا وقصيدا، ونشيدا ووصلت بها الى اوسع واعمق واحلى ما يمكن ان تصل اليه.. وبلغت غاية الاشباع والامتاع..

فلتبدا مرحلة التعبير الموسيقى الذى نادى به الدكتور حسين فوزى والتدوين الموسيقى والتاليف الموسيقى..

ليعد ولا اقول يبدا المسرح الغنائى فقد شرعت مصر، النهضة المسرحية فى مطلع القرن العشرين وباركها طلعت حرب الذى انشا شركة التمثيل العربى وتياترو الحديقة الذى مثلت عليه اوبرات كاملة او اوبرا كوميك مثل (شمشون ودليلة) و (صياد اللؤلؤ) كما لحن سيد درويش: (العشرة الطيبة) و (شهرزاد).

واليوم وسط ظلام وزحام الغث المنتشر بلا ضابط لا افقد املى فى مصر التى انشات الاوركسترا السيمفونى والكورال وطرحت فى حقل التاليف الموسيقى اعمالا مشهودة ليس آخرها (حاملات القرابين) للدكتور جمال عبدالرحيم، او جهود (رفعت جرانة) و (عزيز الشوان) وهو امتداد للدكتور «ابوبكر خيرت» وعالم الموسيقى المجهول احمد خليل مصطفى الفحام.

وتمضى الايام

وتتعدد المدارس الفنية والاساليب ولكن اغانى ام كلثوم ستظل بطاقاتها المديدة، وقدراتها الخاصة، واسلوبها الفذ المميز، طابعا متفردا وفريدا فى باب الموسيقى العربية لا يتكرر.. ولا يتناهى.. ولا يضاهى.

ستبقى لانها تاريخ فى التاريخ.. ولانها فى الحياة علامة وقيمة.. وبعد الحياة ذخر وتراث.. وفى الحالين معا.. ملحمة امة..

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية